



إيران أو الدولة الفارسية أو بلاد الفرس كما كان يطلق عليها قديماً عندما كانت
إمبراطورية عظيمة تمثل القوة الكبرى والقطب المنافس لبلاد الروم، تتابعت عليها العصور
وتعاقبت عليها فترات من القوة والضعف، ودخلها نور الإسلام؛

العلاقات المصرية الإيرانية في التاريخ الحديث والمعاصر

فأضاعت وتوهجت بإشعاع الحضارة الإسلامية كدرة ثمينة في
حضن الإسلام، وأضافت الكثير إلى رصيد هذه الحضارة
العظيمة، لتصبح بلاد فارس - بامتدادها الجغرافي والتاريخي
وثنائها الحضاري المتنوع - من أكثر بلاد العالم اشتباكاً وتشابكاً
مع محيطها العربي والإسلامي، إلا أن أطماعها السياسية
وطموحاتها التوسعية جعلتها في كثير من الأوقات - وما زالت -
في حالة مواجهة مع هذا المحيط، وازدادت هذه المواجهة تشابكاً
وتعقيداً عندما امتزجت بالخلافات الطائفية والمذهبية التي أراد
بعض الساسة الأغبياء والفقهاء من "حكماء الخراب" توظيفها
لمصالحهم الخاصة، مضحين بالوحدة الإسلامية وبأواصر الدين
والحضارة والتاريخ المشترك، لتحدث مزيداً من الشقاق بين
المسلمين، وتمثل العلاقات المصرية الإيرانية على وجه الخصوص
نموذجاً لحالة المد والجزر الدائمة بين دولتين كبيرتين في
محيطهما الإسلامي، فكل منهما تمثل حضارة عظيمة لها إرث
كبير ومتنوع في سجل الحضارة الإنسانية، وما يجمع بينهما من
أواصر هو بلا شك أكثر مما يفرق... فما الذي حدث؟ وما هي
آفاق هذه العلاقات في المدى المنظور؟... تساؤلات يجيب عنها
هذا الكتاب الذي يحتوي على عدد من المقالات والأبحاث التي



ويحاول الباحثون في هذا الكتاب الإجابة عنها،
لعل من أهمها ما يلي:

أليس هذا هو العالم الإيراني الذي أشار إليه
العلامة توينبي؛ إذ تبعت القومية الفارسية
وتتعد إلى مناطق تأثيرها الثقافي القديم، حيث
يوجد المذهب الشيعي وحيث توجد الحرف
الفارسية الحضارية الإسلامية، وذلك رغم أنف
اللغة التركية المنتشرة في وسط آسيا، واللغة
العربية المنتشرة في ساحل الخليج العربي؟ إن
العالم الإيراني يبعث مجدداً - أيها السادة - في
أرض متأهبة لاستقباله، والمذهب الشيعي إذاً هو
أداته الروحية.

ودعاة التحالف السني مع الصهيونية في
إسرائيل ومع اليمين المسيحي الأمريكي، هل
يهزلون؟ هل يظنون عاقلاً وطنياً حراً عربياً
إنسانياً يضع يديه وهو بريء نقيّ أبيّ في أيدي
قتلة أسرانا وسجاني جوانتانامو وأبي غريب؟
أما المؤرخون وأساتذة الحضارات الشرقية،
فيتساءلون: أليست هذه البلاد الفارسية هي
شريكننا في الحضارة الإسلامية؟ فلماذا كشرت
لنا عن أنياب "قورش" ومارست فعل "هولاكو"؟
هل أخطأ شعبها عندما ثار على الشاه ومخابرات
"السافاك"؟ أكنّا نرضى لهم الذل والهوان؟ أليس
هؤلاء من أصهرنا إليهم؟ أليس هؤلاء من أصدرنا
الفتاوى مغترفين بصحة التعبد بمذهبهم الإثنا
عشري؟ ثم أليس هؤلاء من قطعوا العلاقات مع
قتلة أسرانا، وكان ذلك أملاً يوماً ما؟

وتتوالى التساؤلات،

ما تلك القضايا المسماة بالمعلقة بيننا وبينهم:
جزر الإمارات، تصدير الثورة، شارع
الإسلامبولي، إخلاء الشرق الأوسط من أسلحة
الدمار الشامل؟ فلماذا يتزاور الإيرانيون
والإماراتيون؟ هل نحن إماراتيون أكثر من
إخواننا هؤلاء؟ ولم يتواصل الإيرانيون

تتناول العلاقات المصرية الإيرانية منذ العصور
القديمة حتى العصر الحديث من مختلف
النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية
والثقافية، ويلقي الضوء على فترات التوتر
والازدهار في هذه العلاقات وآفاقها المستقبلية
في ظل تطورات الأوضاع في المنطقة.

العلاقات العربية الإيرانية...

على مفترق الطرق

يشير محرر الكتاب في مقدمته إلى أن
مؤشرات شتى تدل على أن تحركات تتجمع في
إقليمنا العربي توصي بأن أمره خرج عن سيطرة
أهله، وتقرض في مناخه سحبات غيّرت
مجالات الرؤية، وصبغت بألوان ليس لها من
قوس قزح نصيب، بل هي من الريح العاصفة
الدمرة التي أخذت بغداد قلعة الأسود وعاصمة
الرشيد، فسقطت الدرع الشرقية، ومرقت من
باب العباسيين جيوش تحالف دولي مزعوم صار
غطاءً لاحتلال بشع يعيد تجربة استعمار القرن
التاسع عشر إلى أذهان المؤرخين، ولم يستو
الطرفان الأمريكي والإيراني وحدهما على ظهر
العراق، بل أثقل التاريخ التليد بأفاعي بني
صهيون يتخفّون في زِيّ الشركات عابرة
القوميات، يعملون لمصلحة قوة إقليمية ثالثة هي
إسرائيل، ويستطرد المحرر: وتتدافع الآن في
نفوس البعض رغبة مكبوتة في تحبذ أن توجه
الولايات المتحدة سهامها إلى إيران، وكفى الله
المؤمنين القتال، حتى نتخلص نحن من المد
الإيراني في هلالنا الخصيب من العراق إلى
الضاحية الجنوبية في بيروت، وتعلو أصوات
تستثير فينا هذه المرة الخوف على المذهب
السني، وتدعوننا إلى تأسيس محور ضد إيران مع
إسرائيل والولايات المتحدة!

ويقتضي العقل أن نثير أسئلة توقف اندفاعنا،

عوامل الفرس بشكل جيد في مصر في أوقات السلم والحرب



وصدام الثقافات والرسوم المسيئة إلى الرسول الكريم (ﷺ)؟

السنا بالحوار الحضاري مع إيران أولى؟ السنا بحاجة إلى حوار استراتيجي جاد مع إيران يبعث هويتنا إلى الحياة، ويمد وجودنا بنسيم الاحترام، بدلاً من الذوبان في صمت الاحتراق والاختراق؟ أعلنوا لأصحاب المشاريع الثلاثة كلمة سواء: اخرجوا جميعاً من أرضنا؛ فأرض العرب للعرب.

مصريولاد فارس في العصر الحديث

يرصد الباحث د. محمد صبري الدالي في بحثه الصلات بين مصر وبلاد فارس ومشكلاتها حتى أوائل القرن الـ ١٩، فيقول: غريب هو أمر الصلات بين مصر وبلاد فارس في العصر الحديث وقبله، حتى يبدو وكأنها كتب عليها أن تعيش حالة من الجزر شبه المستمر، خصوصاً من الناحية الرسمية، ويرصد أولاً الأسباب السياسية لسوء هذه العلاقات، وأهمها تعدد الكيانات هنا وهناك، واختلاف أهدافها وقيام الصراعات بينها، لاسيما مع استغلال قوى أوروبية لها، ورغم التأثير السلبي للخلافات المذهبية بين الجانبين فإننا نعتقد في أهمية - بل وأسبقية - العوامل السياسية التي استغلت الخلافات المذهبية بشكل مقصود في الغالب، ويحدد الباحث ثلاث مراحل للخلافات فيما يلي:

١- الخلافات المملوكية الصفوية:

فبينما كانت الدولة المملوكية تعيش سنواتها الأخيرة، وتعاني العديد من الأزمات، ظهرت

والسعوديون رغم تصدير الثورة؟ وما نتائج هذا التصدير في شرق المملكة؟ أليس ذلك وهمًا كبيراً نرهن به علاقاتنا مع إيران لمن يتصرف كقوة إقليمية في غيبتنا؟ ولما دخل الإيرانيون مع الأمريكان إلى بغداد، لماذا لم تلم الطرفين؟ أم أن صممتا على أحد الطرفين اقتضى الصمت على الآخر؟

وإذا سلمنا بالخشية من برنامج إيران النووي أن ينتقل إلى الجانب العسكري في غضون سنوات، فهل هو يستهدفنا؟ ولماذا لم نحمل على البرنامج الإسرائيلي وثم خطر يلوث مياهانا الجوفية وسماعنا ويهدد حياة شعبنا؟ أليس السلاح النووي هو السبب المباشر في قبولنا وقف إطلاق النار مخافة استعماله في حرب ١٩٧٢م؟ فهو يشكل إذاً خطراً داهماً، فلماذا تغضب عندما تسعى إيران لمواجهة؟ وكيف نفرض عليها خياراتها؟

ثلاثة مشروعات أمريكية وإسرائيلية وإيرانية تخترق أرضنا، فأين مشروعنا؟

ويبقى السؤال الكبير من بعد كل هذه الأسئلة جميعاً: لماذا يخترق عالمنا العربي بالمشروع الأمريكي والمشروع الإسرائيلي والمشروع الإيراني؟ والجواب الواضح: لأننا بقنا عالمًا فارغًا من مشروع عربي، أليس الأجدر بنا أن نحدد ماذا نريد وما مصالحنا، وبخاصة ونحن نشهد المقاومة العراقية توشك أن تحدد موعداً لانسحاب الجيش الأمريكي من العراق ولبدء العد التنازلي لإعلان فشل الإمبراطورية الأمريكية ولإعادة صياغة نظام عالمي جديد متعدد الأقطاب أكثر عدلاً أو على الأقل أقل ظلمًا؟

أليس من المنطقي أن تقود مصر حواراً مع إيران ليجتمع رأسا العالم الإسلامي سنة وشيعة على كلمة سواء، في عصر صراع الحضارة

- إشباع حماسته الدينية على حساب القوى المناهضة للمذهب الشيعي.

وقد رأى أن القوى السياسية يجب أن تعتمد على قوة عسكرية تربطها بها وشائج عقائدية متينة تجعلها مستعدة للاستماتة في الدفاع عن معتقداتها، وفي ظل التقارب مع العثمانيين خُيِّلَ إلى الغوري أن المشكلات مع الصفويين قد انتهت، خصوصاً وقد وصل سفير صفوي إلى القاهرة في يناير ١٥٠٨م يحمل رسالة ذكر الشاه فيها أن الذي وقع من عسكره بدخولهم أطراف الأراضي الملوكية لم يكن بإذنه، وأكرم الغوري رسول الشاه، بيد أن أطماع الشاه لم تتوقف؛ فهاجم في العام نفسه "بغداد" التي سارع صاحبها مراد خان بالهرب - بعد هزيمته - إلى أراضي الدولة الملوكية، وأرسل يطلب من القاهرة بعض القوات، ورغم ذلك لم يستعد الغوري ولم يستجب لنداء مراد بالمساعدة، بل اكتفى بإجراء الاستعراضات العسكرية، ويبدو أنه في هذه المرة آثر التفاوض مع الصفويين خوفاً منهم ومسلماً باستيلائهم على العراق، على أن سياسة الغوري السلمية سرعان ما اتضح عدم جدواها؛ لعلمه بالاتصالات بين الشاه وبعض الدول الأوروبية ضد المماليك والعثمانيين، وهو ما يحدونا إلى القول بأن السياسة الأوروبية قد لعبت دوراً مهماً في سوء العلاقة بين الطرفين، لاسيما وأن الدولة الصفوية تبادلت الممثلين مع دول لم تكن لها روابط معها من قبل، على أن الازدراء الفارسي للحكم الملوكي وصل إلى ذروته في عام ١٥١٢م، عندما وصل مبعوثا الشاه إلى القاهرة حاملين ادعاءاته بانتمائه إلى أهل البيت وأحقية في حكم مكة والشام ومصر!

ويضيف الباحث، ونعتقد أن سياسة الغوري غير الحاسمة أوقعته بين الخطرين الصفوي والعثماني، ورغم خروجه إلى الشام تحسباً للموقف فإن "سليم" استمر في طمأنته بأن

الدولة الصفوية في بلاد فارس كقوة جديدة (وينسب الصفويون إلى صفى الدين الأردبيلي (توفي سنة ١٢٣٤م)، والذي قيل بانتسابه إلى الإمام موسى الكاظم، وكان من مشايخ الصوفية، وله مريدون بأردبيل وغيرها، ورغم كونه شافعيًا معتدل التصوف فقد اعتنق أحفاده التشيع في القرن ١٥هـ، واستطاعت الدولة الصفوية في بلاد فارس بعد العديد من التطورات إقامة دولة فنية وقوية بوصول إسماعيل بن حيدر (توفي سنة ١٥٢٤م) إلى العرش، وتأسيسه الدولة الصفوية عام ١٥٠٢م، وهو ما كان حدثاً تاريخياً مهماً لبلاد فارس وجيرانها، بل ولأوروبا، ورغم المحاولات الاسترضائية الأولى من الشاه ظهر الصفويون باعتبارهم خطراً حقيقياً على الدولة الملوكية؛ بسبب توسعهم نحو الغرب، والذي كان يؤدي بالضرورة إلى احتكاكات مع الدولة الملوكية في شمال الشام، خصوصاً حول السيطرة على الممرات الاستراتيجية للبلاد الحلبية، وقد تدرجت معرفة المماليك بالصفويين حتى ظهور إسماعيل حين بدأت سوريا تعاني من جراء الدعاية المؤيدة له. ففي سنة ١٥٠١م تحولت ذكرى استشهاد الحسين (عليه السلام) في دمشق إلى شغب عندما أظهر عامة الشيعة شعائرهم بشكل أثار غضب السنة، ومن ثم ساءت صورة الشاه الذي رغم تبنيه عام ١٥٠٢م سياسة حذرة واسترضائية تجاه القاهرة، فإن سياسته هذه انتهت مع نجاحاته في "البلاد الحلبية" وضعف الدولة الملوكية، فبدأ في الادعاء بأن دولته نَدَّ للدولة الملوكية بل ومتفوقة عليها، وكان ارتقاء إسماعيل للعرش لا يعني توقف طموحاته، خصوصاً وقد فرض عليه سير الأمور الصدام مع القوى المحيطة، إما لتطويعها وإما لإخضاعها، كما كان عليه، إلى جانب الوصول إلى حدود آمنة

الدولة الصفوية في إيران قدمت نموذجاً قيحاً للتعب ضد السنة



ورغم استمرار الهدوء في العلاقات في عهد إسماعيل الثاني (١٥٧٦-١٥٧٨م) الفارسي بين مصر وبلاد فارس، فإن الحرب الأهلية في فارس عند نهاية حكمه كانت فرصة انتهزها العثمانيون للاستيلاء على تبريز وتقليص وداغستان، وإذا كان عباس الأول قد رضخ في البداية للتوسعات العثمانية، وأثر أن يعقد معهم صلحاً في عام ١٥٩٠م، متنازلاً عن مساحات شاسعة شمال فارس، والتزم بمنع لعن الخلفاء الأوائل... فإنه بعد أن أعاد ترتيب أمور بلاده، وقضى على خطر الأوزيك، وأرسل السفارات إلى بعض الدول الأوروبية، استعد للمجابهة، مستغلاً تمرد فخر الدين المعنى، ومستعيناً بجهود بعض الضباط الإنجليز في إطار تحالف فارسي إنجليزي.

وفي إبريل سنة ١٦٠١م، أرسل الشاه وفداً لزيارة عدة دول أوروبية ومقابلة البابا، ووفدت بعدها عدة بعثات أوروبية إلى فارس، وكان من أهداف المفاوضات فتح طريق صادرات الحرير إلى موانئ المتوسط، بعيداً عن سيطرة العثمانيين، وقد أولى الإنجليز اهتماماً خاصاً بالأمر، وجاء تأسيس شركة الهند الشرقية سنة ١٦٠٠م كبداية لتنظيم العلاقة، وتطورت علاقة الشركة بالشاه، فحصلت في عام ١٦١٧م على فرمان بتبادل التمثيل الدبلوماسي بين فارس وإنجلترا، وتحولت العلاقة إلى تحالف بين الشاه والإنجليز في الخليج.

توجهه ضد الصفويين، والأمر خلاف ذلك، إلى أن حدثت الواقعة الكبرى بهزيمة الجيش المملوكي في موقعة مرج دابق، وبعدها تم احتلال الشام ثم مصر عامي ١٥١٦، ١٥١٧م.

٢- مصر والصراعات العثمانية الصفوية حتى أواخر القرن الـ ١٨،

وفي هذا الصدد يعيد الباحث التأكيد على خطورة التدخل الأوروبي في الصراع الذي أدار فيه السلطان سليم ظهريه للدور الأوروبي، واتجه إلى محاربة الصفويين، حتى أكسب ذلك "فارس" أهمية في نظر أوروبا باعتبارها أحد الموانع المهمة أمام المد العثماني، وسعت بحماسة لإقامة علاقات صداقة معها، فبينما كان البرتغاليون يخشون تكوين جبهة إسلامية قوية ضدهم، فإن الشاه تعاون معهم، كما يبدو أن الصفويين حاولوا الكيد للعثمانيين بتعاونهم مع بعض المماليك، على أن العثمانيين أحاطوا بتلك المحاولات، بل وأظهروها وكأنها محاولة لتحويل مصر إلى التشيع، وهو ما ظهر واضحاً في المحاولة «الفتنة» التي قام بها أحمد باشا الطاغية الخائن عام ١٥٢٤م للاستقلال عن الدولة، وتلقب بلقب السلطان أحمد.

فلقد أخذت المحاولة بعداً مذهيباً، واتهم فيها ظهير الدين الأردبيلي بأنه أغرى الباشا من اعتقاد أهل السنة إلى اعتقاد مذهب الشيعة الإمامية، وانتهى الأمر بانكشاف أمر أحمد باشا؛ حيث اتضح بأنه داعية لإسماعيل شاه الفارسي، واستحل قتل أهل السنة، وسلب أموالهم، وانتهى الأمر بقتله وتعليق رأسه على باب زويلة، وفُرج عن الناس كرب كبير، كما ترتب على ذلك أيضاً أن أخذ العثمانيون حذرهم من المتصوفة المعجم في مصر، بل ومن المعجم الذين التحقوا بخدمة الدولة العثمانية لبذر بذور الضعف فيها.

مصر والصراع العثماني الفارسي

أوائل القرن ١٩

كان نجاح محمد علي في الاستمرار بالحكم يعني قدرة مصر على ممارسة دور سياسي إقليمي ودولي أكثر نشاطاً واستقلالاً وفاعلية مقارنة بما كان من قبل رغم بقائها من الناحية الرسمية ولاية تابعة للدولة العثمانية، وما بين التبعية الرسمية للدولة والاستقلال النسبي الفعلي... بدأت العلاقات بين مصر وبلاد فارس في استعادة بعض النشاط، وقد استمر العراق غاية من غايات الفرس وسبباً للحروب، وتركزت الخلافات حول المشكلة الكردية والهجرات الموسمية من فارس إلى العراق لأهداف دينية واقتصادية، وشجع "الفرس القاجاريين" على ذلك ضعفُ باشاوات العراق، وأن الشاه لم ينسَ مهاجمة الوهابيين لكربلاء عام ١٨٠١م، بالإضافة إلى فشل المفاوضات بين الجانبين لحل الخلافات، وأن روسيا بعد زيادة نفوذها شجعت فارس على الاستيلاء على العراق، وهكذا هاجم الفرس بغداد عام ١٨٢٠م، في وقت كانت فيه الجبهة الداخلية مفككة، وانتصرت القوات الفارسية على جيش داود باشا، وإذا كان محمد علي قد قام بدوره في التجسس على الفرس، وتكهن بأن الدولة ستطلب مساعدته لها، فقد كان عليه أن يحدد الخطر الذي يهدد العراق ومدى تقدم الفرس ومن الحليف ومن العدو، ومن وراء هذا كله كان يرمي إلى حماية البلاد الواقعة تحت حكمه من المؤامرات التي قد يدبرها له الفرس باعتباره عضواً في قوة الدفاع العثمانية.

الأسباب المذهبية

لسوء العلاقات بين مصر وبلاد فارس

رغم انقسام المسلمين إلى نحو ثلاث وسبعين فرقة، كان الخلاف الرئيسي بين السنة والشيعة، وجاءت في الدرجة الثانية الخلافات حول قضايا

فقهية، مثل: الجبر، والاختيار، وخلق القرآن... إلخ، ورغم نقاط الاتفاق اختلفت السنة والشيعة في أمور الحديث والفقه والاجتهاد، وبخاصة في قضايا الخلافة والإمامة، وهي أمور رغم قدمها فقد استمرت أواخر العصر المملوكي، وتفاقت في العصر العثماني.

فقد ظهرت هذه الخلافات حول رفض الماليك دعوى الصفويين الانتساب إلى آل البيت وتمسكهم بالتشيع، وهو الأمر الذي جعل الشاه "عدواً" و"كافراً" و"رافضياً" و"عدواً للقرآن والحديث"!!

كما لم يعترف الصفويون للعثمانيين بالحق في الخلافة والإمامة، وهو ما يتضح مما كتبه الصدر الأعظم لطفي باشا وما أورده من أحاديث وآراء فقهية لإثبات اندماج الإمامة والخلافة في العثمانيين؛ لمواجهة التشكيك الفارسي الذي يدعي ضرورة أن يكون الإمام من قریش، حيث رد بأن هذا القول باطل مردود خارج عن أهل السنة والجماعة وموافق لقول الإمامية من "الروافض"، وانتهى إلى أن الإمام هو من ينوب مقام النبي (ﷺ) في إقامة الدين وتدبير الحكم. ومع أننا لا نقلل من خطورة الخلافات المذهبية فإننا في المقابل نرى أنها لم تكن تحتم الصراع لولا توافر أمور، منها: تراث الصراع في فارس نفسها بين السنة والشيعة حتى القرن الـ١٥، والمحاولات العديدة لإقامة دولة شيعية هناك، وقد ترك ذلك تأثيره على العلاقات الفارسية العثمانية، لاسيما وقد تزامن الصراع السياسي مع فترة من فترات مد غلاة الشيعة في الأناضول وفارس المتداخلة جغرافياً معها، وقد تعرض الإمامية في فارس للمطاردة في العصرين القرنوي والسلجوقي؛ مما اضطرهم إلى التظاهر بقبول العقيدة السنية، على أنهم نعموا بالحرية إبان الحكم المغولي، ويمكن القول بأن ظهور الدولة الصفوية كان

**المفكر الشيعي المعتدل موسى الموسوي
يهاجم المتعصبين من الشيعة، ويرى أنه لا
يليق صدور عبارات جارحة من مسلم نحو
أخيه المسلم، فما بالك لو كانت
ضد صحابة الرسول (ﷺ)**



الفريقين أعمالاً وحشية زادت النفور والكراهية بينهما، ونظراً لذلك ولتشبث كل طرف بمذهبه دون احترام لمذهب الآخر والتوظيف السياسي للخلاف المذهبي دون اعتبار يذكر بأن الإسلام يجمع الطرفين، غدت القضية المذهبية أحد عوامل الخلاف وضعف العلاقات بين الجانبين، وقد تركت هذه الخلافات تأثيرها على الموقف في مصر من الفرس، ورغم خطورة إسقاط الخلافات المذهبية على الصراعات السياسية واستخدام الساسة لها لخدمة أهدافهم، فإن ذلك هو ما حدث، وقد طال ذلك كتابات المؤرخين المصريين الذين عكست كتاباتهم - مثلهم مثل غيرهم من العرب - البعد السياسي/ المذهبي، فعندما أرسل الشاه إلى السلطان الغوري ببيتين من الشعر يقول فيهما:

نحن أناس قد غدا شأننا

حب علي بن أبي طالب

يمينا الناس على حبه

فلعنة الله على العائب

نشطت قرائح الكتاب والمؤرخين في مصر للرد

عليه، فقال ابن عثمان مثلاً،

ما عيبكم هذا وتكنه

بغض الذي تُقَبُّ بالصاحب

نتيجة لثورات ومحاولات عديدة لإقامة دولة شيعية في القرن الـ ١٤ الميلادي.

ونتوه هنا بما كتبه موسى الموسوي، وهو أحد الشيعة المعتدلين الذين قاموا بمراجعات للفكر الشيعي، عن أن الخلاف حول الإمامة والخلافة لم يتوقف عند كونه خلافاً فكرياً حاول فيه كل طرف إثبات صحة وجهة نظره، بل اتخذ شكلاً خطيراً كلما مرت السنوات، وبخاصة بعد الفية الكبرى، حيث تجاوز الخلاف حدوده، واتخذ طابعاً عنيفاً عندما بدأت الشيعة تجرح الخلفاء الراشدين وبعض أمهات المؤمنين بعبارات قاسية لا يليق أن تصدر من مسلم نحو مسلم، ناهيك عن أن تصدر من فرقة إسلامية نحو صحابة رسول الله (ﷺ) وأزواجه!!

والنتيجة أن بادل السنة الشيعة موقفاً بموقف (موسى الموسوي: الشيعة والتصحیح، لوس أنجلوس ١٩٨٧م)، وكان ارتقاء الشاه إسماعيل عرش فارس يختلف عن سبقه؛ لاتخاذ المذهب الشيعي الإثنا عشري مذهباً رسمياً للدولة، وجمعه بين صفة الشاه والمرشد الأكبر لدعاة الشيعة، واتخاذ السيف والقلم وسيلة لتحقيق أهدافه، ورغم وقوفه ضد غلاة "الهوية" الذين نادوا بالهوية علي بن أبي طالب (ﷺ)، فإنه ارتكب فضائح لا حد لها مع السنة، لاسيما علماؤهم وشعراؤهم، وحين قيل له: إن ثلثي سكان تبريز من السنة، ويحتل ثورتهم بسبب نشر رسوم التشيع ولعن الخلفاء الأوائل، كان رده: رب العالمين معي، والأئمة المعصومون معي، ولا أخشى أحداً، ولو تحدثت الرعية بكلمة أشهر سيفي ولا أدع أحداً حياً!!

وكل ما سبق كان سبباً في تخريب العلاقات بين الفرس والدولة العثمانية بما تضمنه تحت لوائها من أقطار وولايات، ومنها مصر، وقد أدت هذه الخصومات منذ القرن الـ ١٦ إلى ارتكاب

كَذَبْتُمْ عَنْهُ وَعَنْ بَنْتِهِ

فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِ

وفي هذا الإطار شهدت مصر ظهور المؤلفات المؤيدة للدولة العثمانية ضد الدولة الصفوية، ومنها "قلائد العقيان في فضائل آل عثمان"، لمربي الحنبلي. كما ظهرت المؤلفات التي دافعت عن أهل السنة وعن العرب، ومنها "تأييد المنة بتأييد أهل السنة"، لمحمد البكري، و"غاية الطلب في فضل العرب" للمؤلف نفسه.

بيد أن ما سبق لا ينفي حدوث تطور ما في نظرة الشيعة والسنة إلى بعضهم، وإذا كان كتاب "عقائد الشيعة" لعلي أصغر، أوائل القرن الـ ١٩، مثلاً على ذلك، حيث دحض بعض العقائد الباطلة ورد على المغالين في حق الأئمة والقائلين بالوهمية علي، فإن ما حدث في مصر منذ القرن الـ ١٨ من عدم الإقبال كالسابق على قتال الفرس، كان يتواءم مع ما حدث في فارس، واتضح ذلك بصورة أنضج في عهد محمد علي، حيث طرحت سياسته فهماً جديداً للشيعة لا يعتمد على الأبعاد المذهبية، بل على المصالح وموازين القوى، وفي هذا الإطار عومل العجم بشكل جيد في أوقات السلام، كما تمت معاملتهم بشكل جيد في أوقات الحروب باعتبارهم أعداءً من الناحية السياسية فقط.

الصلوات بين مصر وفارس وأشكالها

على الرغم من سوء العلاقات الرسمية بين مصر وبلاد فارس في العصر الحديث؛ بسبب الخلافات السياسية والمذهبية والصراعات العسكرية، فقد بقيت بعض أشكال الاتصال والتواصل غير الرسمية، يرصد المؤلف أهمها فيما يلي:

١- الصلوات التجارية؛ لم تتقطع الصلوات التجارية

بين مصر وفارس، خاصة مع أهمية ما تنتجانه من محاصيل أو ما يمر بهما من سلع،

ووقوعهما في منطقة حتمت التبادل في ظل أنساق تقليدية للتجارة والملاحة، وقد اشتهرت بلاد فارس خصوصاً بإنتاج أجود أنواع الحرير والسجاد والأحجار الكريمة، وقد قامت هرمز بدور في التبادل التجاري بين مصر وفارس، واستقبلت سلع كل جانب، وغصت بالتجار الفرس والعرب وغيرهم، كما استمرت دمشق وحلب وغيرهما من المدن في لعب دور مهم في وصول بعض أنواع التجارة الفارسية إلى مصر والعكس، لاسيما في أوقات السلم بين الفرس والعثمانيين، وكان في مصر وجود لبعض التجار العجم رغم العقبات، وكان الطبيعي أيضاً في هذا الإطار حدوث زيجات ومصاهرات بين المصريين والفرس، ومن ناحية أخرى استمرت قافلة الحج في لعب دور مهم في وصول السلع الفارسية إلى مصر، وهو ما أسهم فيه إعفاء الحجاج من الرسوم الجمركية.

٢- الصلوات الدينية؛ وقد لعبت دوراً مهماً في بقاء

بعض الصلوات بين مصر وفارس رغم العداء بل وبسببه، فنتيجة لاتخاذ الدولة الصفوية التشيع الإمامي مذهباً رسمياً ووحيداً وما صاحب ذلك من تداعيات، رحل بعض أهل بلاد فارس من السنة إلى أراضي الخلافة العثمانية، ومنها مصر، كنوع من المقاومة للاضطهاد الذي تعرضوا له، وللاحتفاظ بمذهبهم، والحقيقة أن الدولة العثمانية فتحت أراضيها للسنة الفرس، بل ولبعض المعتدلين من الشيعة، كنوع من التسامح النسبي، على أن الأهم مما سبق هو الدور الذي لعبه التصوف في الاتصال والتواصل بين مصر وفارس، ومن المعلوم أن البلدين شاركنا بدور بارز في تاريخ التصوف، وعرفنا باعتبارهما من أهم مراكزه، وأنجبتا الكثير

رحل بعض الأتراك والعرب إلى فارس؛ إما في سبيل التعلم، وبخاصة حتى أوائل القرن الـ١٦، وإما لنشر المذهب الشيعي الذي واجهت الصفويين في البداية مشكلة ندرة كتبه وقلة معلميه، لذا دعا الشاه إسماعيل بعض العلماء الشيعة من العرب، وأغلبهم من البحرين وجبل عامل والعراق، حيث تولى بعضهم مناصب مهمة، وتركوا أثراً كبيراً، ومنهم بهاء الدين العاملي (توفي سنة ١٦٢٢م)، والذي يعتبر من أكبر العلماء، وكانت له إسهاماته المهمة في العلوم الشرعية، وقد زار العاملي مصر ومدحها ومدح أهم شيوخها: محمد البكري الصديقي، بقصيدة تحمل بعض المعاني الراقية، لاسيما وأنها تعكس احترامه لأبي بكر الصديق (رضي الله عنه) وذريته، واحترامه للسنة، ومن الواضح أن هذه النظرة أملت على أفكاره الدينية المعتدلة، وظروف حياته التي عاش معظمها متنقلاً بين البلاد الإسلامية، وكتابته بالعربية والفارسية، وفي عهد محمد علي جرى الاهتمام بالفارسية حتى كانت تعلمها في المكاتب والمدارس، كما انتشرت في مصر الكتب والصحف الفارسية، فضلاً عن انتشار الكثير من المصطلحات الفارسية.

العلاقات المصرية الإيرانية

في عهد أسرة محمد علي (١٨٠٥ - ١٩٥٢م)

يرصد الباحث عبد الوهاب بكر هذه الفترة، ويشير إلى أن عام ١٨٤٨م يسجل بداية الشكل الحقيقي للعلاقات المصرية الفارسية، عندما وقعت الدولة العثمانية والإمبراطورية الفارسية معاهدة (أرضروم) التي نظمت العلاقات بين الدولتين في شأن معاملة رعاياهما، حيث قررت المعاهدة إنشاء (شاهبندريات)، وهي شكل من

من مشاهير شيوخه، وشهدتا مراحل تطوره الرئيسية بما فيها التصوف الفلسفي والطرفي، وقد كان لبعض الطرق أصول شيعية أو فارسية.

٣- **الصلات الثقافية:** رغم كل تداعيات الخلافات السياسية والمذهبية، وبعبداً عن إسهامات الفرس المهمة في الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي في فترات ازدهار، فقد كانت هناك صلات فكرية بين بلاد فارس والولايات العربية، خصوصاً في ظل تشابه نظم التعليم والتواصل بين اللغات الفارسية والتركية والعربية، ولم تنعزل فارس عن العرب والعثمانيين، وأفادها في ذلك وضعها الجغرافي ونفوذ أدبها وثقافتها، وكذا نفوذ اللغة العربية على اللغتين الفارسية والتركية، ورغم تراجع مكانة العربية في فارس بعد إسقاط الخلافة العثمانية، فقد بقي لها رونقها كلفة لعلم الكلام وغيره، وكانت إلى حد كبير لغة أهل الأدب والسياسة، وقد كانت معظم كتب الفرس في العلوم الإسلامية باللغة العربية حتى القرن الـ١٩، وقد لعبت الهجرة والترحال دوراً بارزاً في بقاء الصلات بين الجانبين، وتعددت أسبابها ومظاهرها، وإن أصبحت أكثر وضوحاً من بلاد فارس إلى الدولة العثمانية، سواء لتلقي العلم أو لأسباب مذهبية، وهو ما شاركت فيه مصر بدور ملحوظ حتى كثر بها من كان لقبه "المعجمي".

ومن أن وجود الفرس في مصر لتلقي العلم ليس بجديد، حيث احتضن الأزهر بعضهم قبل الغزو العثماني، فمن الواضح أن هذا الوجود استمر رغم الخلاف المذهبي، بل وبسببه، وفي هذا الإطار شهدت بدايات العصر العثماني تولي بعض الفرس للوظائف في مصر، وفي المقابل

التقارب المذهبي قامت جامعة الأزهر بتدريس الفقه الشيعي، كما طبعت وزارة الأوقاف المصرية بعض الكتب لفقهاء شيعة.

تطورات العلاقات المصرية الإيرانية

في العصر الحديث

في بقية فصول الكتاب، يرصد الباحثون تطورات العلاقات المصرية الإيرانية باعتبار مصر وإيران نموذجين متطابقين - مع بعض الفروق - للبلاد التي تعرضت لتطورات ما بعد الحرب العالمية الثانية، وقد أدت الحركات الوطنية المناهضة لهيمنة الغرب على المنطقة إلى تقاربهما في تلك الفترة، حيث كان في مصر مصطفى النحاس في أواخر الأربعينيات، يقود هذا التيار المناهض لفساد الحكم وسيطرة الغرب، بينما كان محمد مصدق في إيران يثور على خضوع شاه إيران محمد رضا بهلوي للنفوذ الغربي، وقد التقى الزعيمان: مصطفى النحاس ومحمد مصدق في القاهرة بعد أيام من إلغاء النحاس لمعاهدة ١٩٣٦م، وكان ذلك في سنة ١٩٥١م، وتمخض اللقاء عن توسيع نطاق معاهدة الصداقة المصرية الإيرانية، وجرى التنسيق مع إيران على تأييد المطالب المصرية في الأمم المتحدة، كما أن حكومة مصدق جمدت الاعتراف الإيراني بإسرائيل.

إن قصة العلاقات المصرية الإيرانية جديرة بالاهتمام، فهي تمثل منحنيات وارتفاعات العلاقات بين بلدين دينهما الإسلام؛ يعتنق أحدهما المذهب السني بينما يعتنق الآخر المذهب الشيعي، ورغم التناقضات المذهبية فقد قامت بينهما علاقات تراوحت بين الفتور والحميمية، وشهدت رابط المصاهرة الاجتماعية كما شهدت التحالف الوطني لطرد الأجنبي، وتعرضت لمؤامرات غربية لفسخ عرى الارتباط بينهما. ■

أشكال القنصليات في ولايات الدولة، ومنها مصر، والتي تأسست فيها الشاهبندرية الفارسية سنة ١٨٥٢م تحت اسم "باش شهبندرية إيران"، وعندما صدر تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢م اعترفت إيران باستقلال مصر - وإن كان استقلالاً منقوصاً، وبعد توقيع مصر معاهدة التحالف مع بريطانيا سنة ١٩٣٦م، أصبح مستوى التمثيل السياسي بين البلدين هو السفارة، وقد توجت العلاقات المصرية الإيرانية في مارس ١٩٤٩م بزواج الأمير محمد رضا بهلوي - ولي عهد إيران - بالأميرة فوزية - شقيقة الملك فاروق، وقد أدى ذلك إلى ارتفاع مستوى التمثيل بين البلدين إلى ما فوق درجة السفير، وهو (مندوب فوق العادة)، إلا أن العلاقات أصابها بعض الفتور في أعقاب انفصال الشاه محمد رضا بهلوي عن زوجته الإمبراطورة فوزية، كما أحدث اعتراف إيران بإسرائيل شرخاً عميقاً في هذه العلاقات، رغم المحاولات الجادة لاستمرار أجواء الود والتقارب!

وقد تشكلت في سنة ١٩٤٧م في مصر جمعية التقريب بين المذاهب الإسلامية، والتي ضمت شخصيات سياسية وإسلامية من البلدين، وكان هدفها توحيد صفوف المسلمين على اختلاف مذاهبهم، وقد أصدرت هذه الجمعية مجلة (رسالة الإسلام)، واستكثبت فيها عدداً من كبار العلماء من المذهبين، كالشيخ محمد شلتوت الذي أصدر فتوى بجواز التعبد بالمذهب الشيعي الإثنا عشري، وقد ظلت مجلة رسالة الإسلام تصدر على مدى ١٦ عاماً حتى توقفت سنة ١٩٦٩م، كما توقفت الجمعية مع اندلاع الثورة الإيرانية الإسلامية سنة ١٩٧٩م، وفي إطار